المرّاش ومَينار

اشرنا في ترجمة وطنينا العالم الفاضل المرحوم عبدالله المرّاش الى ما كتبهُ من النقد على ترجمة كتاب مروج الذهب الى اللغة الفرنسوية بقلم المسيو بربياي دمَينار احد مشاهير علمآء الفرنسيس ووعدنا ان ننشر النقد المذكور على صفحات هذه المجلة ايذاناً بفضل الكاتب رحمهُ الله واحيآء لآثارهِ في خدمة اللغة والذياد عن ائمتها وتنبيهاً لاولئك القوم الى التثبت فيما يطبعون وما يترجمون من اسفارها حرصاً على اغراض مؤلفيها وتنزيهاً لهم عما يُنسب اليهم من السفاسف المحرَّفة مما يضيع بهِ فضلهم ويلقي على اقوالهم شبهة اللغو والخطأ . على أنّا والحق يقال لا ننكر ما لاولئك القوم من الفضل في احيآء كثيرٍ من كتب السلف وما يبذلون من الجهد في ضبطها وتصحيحها كما لا ننكر عليهم فضل المثابرة في درس هذه اللغة وادراك الشيء الكثير من احكامها وضوابطها غير انهُ يسوءنا ان نرى فيهم من الصلَف والدعوى والاستئثار بمزية اللغة على اربابها ما ادّى الى افساد الكثير من تلك الكتب وضياع رونقها وذهاب كثيرٍ من فوائدها. وهذا ما دعا وطنينا المرحوم المشار اليهِ الى تكلف نقد هذا الكتاب مما سترى فيهِ من الغرائب ما يقضي بالعجب العجاب . ولا بأس قبل الشروع في نشر النقد ان نذكر شيئاً من كلامهِ في هذا المعنى نقلاً عن بعض رسائلهِ نجعلهُ بمنزلة مقدمةٍ للنقد المذكور وان خرج احياناً الى ما لا يخلو اثباتهُ من فكاهةٍ او فائدة والحديث شجون . فمن ذلك ما كتب بهِ الينا

بتاريخ ١٢ آب (اوغسطس) سنة ١٨٩٧ قال

« اتفق لي في هذه الايام الوقوف على كتاب مروج الذهب للمسعودي وهو اهمّ كتابٍ تولى ترجمتهُ الاستاذ بربياي دمينار وقد شرعت في تقييد ما عثرت عليهِ من اوهام ذلك الاستاذ اعني المواضع التي اخطأ فيها المرمى والعبارات التي عكس معناها واحالهُ الى غير مراد القائل . اما الغلطات التي يمكن تأوُّلها او عزْوُها الى النساخ وهي كثيرة جدًّا في المجلد الاول فليس في عزمي ان اعرّج عليها اولاً لان الاسفاف الى الترّهات مع وجود اشياء ذات بالٍ نفي بمرادنا ينبغي اجتنابهُ تفادياً من ان تُنسَب الى التحامل وثانياً لان الاستاذ نفسهُ قد تبرأ من مسؤولية الخطأ فيها فذكر في المقدمة ان نسخ الكتاب التي وقعت اليهِ وان كانت متعددة الا انها كلها سقيمة وهذا ضربٌ من الاحتراس يلجأ اليهِ المستعربون جميعاً لكنهُ لا يجوز على من ينعم النظر في رقاعاتهم لان اكثر ما يكون خطأهم في المواضع التي لا تحتمل اللبس ولم يقع فيها غلط من النساخ فالقارئ هم على كاهل اولئك المساكين ما يرتكبونهُ هم انفسهم من فاحش الغلط يسوّغ لاولئك النساخ ان يتمثلوا بقول الشاعر

وحمّلتني ذنب امرئٍ وتركتهُ كذي العُرّ يُكوَى غيرهُ وهو راتعُ

ومهما يكن من هذا فليس مرادي اليوم ان اشرع في التنبيه على اوهام استاذنا بل سيأتيكم ذلك تباعاً على اثر مراجعتي الكتاب مجلداً بعد مجلدٍ فكلما فرغت من مجلد ارسلت اليكم بما يعنّ لي فيهِ ولا اظن العمل يتمّ في اقل من شهرين لان الكتاب طويل يقع في تسعة مجلدات . على اني من

الآن اقول ان الاستاذ لم يتهيأ لهُ ان يستعين بسليمان الحرائري على ما كان ينعجم عليهِ في هذا الكتاب كما كانت عادتهُ ان يفعل في سائر ما يتعرض لهُ من امور العربية لانهُ لما كان من الذين قيل عنهم انهم اكثر الناس خطأً لا لعلةٍ اخرى الا لانهم لا يطيقون ان يخطأُوا كان شديد الخوف من انتقاد حرفآئهِ فلذلك كان يستعين (خفيةً) بسليمان الحرائري او غيرهِ فيما ينشرهُ من الاشيآء المهمة كما فعل في كتاب نوابغ الكلم للزمخشري فانهُ ما ترجمهُ ونشرهُ (في الجورنال اسياتيك) الا بعد ان ساعدهُ عليهِ الحرائري فلما مات المذكور ولم يبقَ لهُ من يستنيم اليهِ في كتمان السرّ احجم عن التعرض للاشيآء ذات البال في العربية واقتصر على التركية

وقد سآءني ما ذكرتموهُ من العوائق التي تصدكم عن طبع يتيمة الدهر او نشر غيرها مما كنتم تؤثرون نشرهُ الا اني مع الاستيآء من ذلك لم اتعجب منهُ لان هذه الازمة التي اعترت تجارة الكتب وما نشأ عنها من هبوط اسعار المطبوعات قد عمّت الدنيا باسرها لا بلادنا وحدها وسببها (كما يقول التجار في اصطلاحهم) زيادة المحصول على القاطعية فلذا كثر تشكي الصحافين في اوربا واميركا وقد اجتمعوا لهذا الامر مراراً يديرون رأيهم فيهِ لكنهم لم يقفوا بعد على علاج ناجع وكانت تجارتهم تأول الى البوار لولا ما يتداركها احياناً من حسن البخت بان يقع احدهم على كتابٍ غريب في بابهِ فينشرهُ فيرغب الناس فيهِ ويعوّض على طابعهِ في طبعةٍ واحدة ما اصابهُ من الخسائر في عامهِ اجمع . وذلك كما جرى لواحدٍ منهم اخيراً في كتاب طبعهُ هذه السنة فعوّض عليهِ خسائر العام وهو كتابٌ يبحث فيهِ عن

الاسباب التي جعلت الانكليز يفوقون غيرهم ومصنفهُ ادمون دمولان وهو رجلٌ فرنسويّ من طرف ابيهِ لكنهُ شرقيّ من طرف امهِ لان امهُ بنت وطنيّا ميخائيل الحمصي من مدينة حلب . وانما ازداد خطب هذه الازمة تفاقماً في مصر بما يجنيهِ المصريون على انفسهم من ردآءة العمل وقلة الاعتناء بما ينشرونهُ من الكتب فان كان المجلد الكبير لا يباع باكثر من عشرة قروش مثلاً فذلك اولاً لقلة الطالب وثانياً ومن وجهٍ اخص لسقم طبع الكتاب وردآءة ورقهِ مما يصدّ الناس عن مشترى مطبوعاتهم ولا سيما الاخيرة منها ولا عجب من ذلك فان الصحّاف منهم اذا همّ بنشر كتاب لم يزد على ان يستعير نسختهُ من دار الكتب الخديوية مثلاً ولا يعتني بتصحيحها كسلاً او عجزاً ويسلمها الى صفّافٍ جاهل لا يكاد يفرق بين الصاد والزِق فيطبعهُ بحروفٍ قد براها طول الاستعمال على ورقٍ لا يصلح لغير صرّ الحلوى فيخرج وهو من السقم وكثرة الغلط بحيث لو رآهُ مصنفهُ لانكرهُ وتبرأ منهُ بتةً وصفع بهِ قفا طابعهِ . مثال ذلك كتابٌ وقع اليَّ من مدةٍ وجيزة قد جمعت فيهِ ثلاث رسائل احداها في تهافت الفلاسفة للغزالي والثانية في الرد عليها لابن رُشد والثالثة في الحكم بينهما لواحدٍ من علمآء الترك المتقدمين كتبها بايعاز السلطان سليمان الشهير فرأيت في ذلك المجلد ما لم اكن لاصدقهُ لو لم اعاينهُ فانهُ لا يكاد يخلو سطرٌ من غلطةٍ او حرفٍ مكسور او سقوط نقطةٍ او تداخل بعض احرف اللفظة في احرف جارتها وهذا فضلاً عن ردآءة الورق فرددتهُ الى الذي ارسل بهِ اليَّ . ومثل ذلك ايضاً كتاب رسائل اخوان الصفآء ابيت ان اشتريهُ كاملاً ببضعة فرنكات

لسوء طبعهِ وآثرت عليهِ الملخَّص المطبوع في جرمانيا فاشتريتهُ باكثر من اربعين فرنكاً على ما فيهِ من السقط وما ذلك الا لان طبعتهُ ناصعة والمطالعة فيهِ سهلة فآثرتها على طبعة مصر الكاملة لاني رأيت العامة قد صدقوا في قولهم « يا مسترخص اللحم عند المرق تندم »

وفي كتابٍ آخر بتاريخ ١٩ آب

« انجازاً لما وعدت بهِ في كتابي الاخير ارسل اليوم اليكم بجريدةٍ قيدت فيها القليل من الاوهام الكثيرة التي عثرت عليها في المجلدات الثلاثة الاولى من مروج الذهب وذلك من غير بحثٍ شديدٍ عنها ولم اعرّج على ما اخطأ فيهِ الاستاذ في النقل والطبع الا في المواضع التي افضى خطأهُ فيها الى فساد المعنى او احالتهِ الى غير مراد قائلهِ ولو اني تتبعت سائر غلطاتهِ وسقطاتهِ التي من هذا القبيل لملأتُ منها مجلداً ضخماً . وذلك انهُ قلما تخلو صفحةٌ من سقطةٍ او سقطتين كتذكير المؤنث وتأنيث المذكر وكالافراد حيث يتعين الجمع وبالعكس والتعريف حيث يجب التنكير وبالعكس والرفع او النصب او الخفض حيث يتعين خلاف ما اتاهُ والتخفيف حيث يجب الهمز وبالعكس . اما قلب الحروف او وضع الهمزة مكان العين والهآء مكان الحآء فذلك اكثر من ان يحصى يقول مثلاً « جرل » مكان رجل و « تحزحزَت » مكان تزحزحَت و « ينصبُّ » مكان ينضب و « رأى » مكان رعى و « هار » مكان حار و « فيافاً » مكان يباباً و « الفاغيرة » مكان الفاغرة . بل قلما اورد اسماً اعجمياً من الاعلام الا حرَّفهُ تحريفاً مضحكاً يقول « سنجاريت » مكان سنحاريب و « النقر » مكان أليفز وامثال

ذلك مما لو وقعت عليهِ عين صبيٍّ من صبيان الكتاتيب عندنا لم يتردد في تصحيحهِ . وهذا كلهُ قد اهملت التعريج عليهِ لان الاستاذ يقدر ان يحتجّ فيهِ عن نفسهِ بان يقول هكذا وجدهُ في النسخ التي نقل عنها وليس التصحيح من ولايتهِ . على انهُ قد صحح في موضعين او ثلاثة ويا ليتهُ لم يفعل لانهُ اخطأ في تصحيح ما ليس فيهِ خطأٌ ولا اعلم كيف ان المستعربين الذين شاركوهُ في هذا العمل (كما هو مذكورٌ في الصفحة الاولى من الكتاب) او اعانوهُ عليهِ في مراجعة الاصل والترجمة (كما يقرّ هو نفسهُ في مقدمة المجلد الثاني) لم ينبهوهُ على ما ارتكبهُ من الاغلاط الفاضحة ولو من حيث الاعلام الاعجمية مع ان فيهم رجالاً من اهل الدراية ومعرفة التاريخ ولا سيما فيما يتعلق باخبار التوراة والاعلام الواردة فيها بل ان فيهم عالماً شرقياً اسمهُ وفيق بك اعانهُ على العمل وقابل الكراريس على نسخة قديمة من المروج كانت في حوزتهِ وبقي فيهِ مع ذلك ما يُضحك منهُ . ومما ذكرهُ في مقدمة المجلد الثاني انهُ لما كان آخذاً في طبع الصفحات الاولى من المجلد المذكور وصل اليهِ من القاهرة نسخةٌ من المروج قد طُبعت في بولاق فصارت عندهُ في جملة النسخ المتعددة التي جمعها لديهِ للاستعانة بها على ما كان شارعاً فيهِ الا انهُ (والله اعلم) لم يتنازل لمراجعة هذه النسخة لانها مما تولى طبعهُ الشرقيون فهي لذلك غير جديرةٍ بان يلتفت اليها الاستاذ . وكيف لا يطرّحها وينبذها ظِهرياً من كان يزعم مثلهُ ومثل غيرهِ من الاستاذين انهم قد اصبحوا من التبحر في العربية بحيث لم يبقَ بهم حاجةٌ الى العرب بل ان العرب انفسهم قد صاروا في افتقارٍ الى استفتاء

الاستاذ وامثالهِ فيما يعرض لهم من مشكلات اللغة ولذلك رأيت ان الاحتجاج عليهِ بحجةٍ يستخفّ بها ضربٌ من العبث واضاعة الزمان وان انجع الاشيآء فيهِ ان ندينهُ من فمهِ ونقضي عليهِ بشهادة نفسهِ لا بشهادةٍ من الخارج وهذا ما فعلتهُ في اكثر المواضع فاني لم اتعقب من خطإهِ الا ما يُنسَبَ الى جهلهِ لا الى غلط النساخ كما يتبين ذلك من مراجعة ما سأذكرهُ في محلهِ » . انتهى

وسنشرع في ايراد النقد من الجزء التالي ان شآء الله تعالى

﴿ انحطاط النيل ﴾

كان من انقباض مياه النيل في هذه السنة ما قامت لهُ البلاد وقعدت خوفاً من عموم الجدب وتلف المزروعات في القطر كلهِ لان النقص بلغ فيها الى حدٍّ لم يُعهَد لهُ نظير في السنين الغابرة . والذي يتبين من التقرير الذي وضعهُ السير جارستن وكيل نظارة الاشغال العمومية لمقاييس النيل بتاريخ ٢٤ يناير من سنة ١٩٠٠ الحالية ان هذه السنة هي احدى سنواتٍ خمس نقصت فيها مياه النيل عن معتادها منذ سنة ١٨٧١ الى السنة الحاضرة اي منذ وُجدت سجلاّت مضبوطة لمقياس النيل في اصوان . والسنوات الاربع الاخر هي سنة ١٨٧٤ و ١٨٧٨ و ١٨٨٩ و ١٨٩٢ لكن الذي ظهر من مقاييس هذه السنة ان النقص فيها افحش كثيراً مما كان في السنين المذكورة وقد وضع السير المشار اليهِ جدولاً ذكر فيهِ مناسيب المياه في اصوان للخمسة عشر يوماً الأُوَل من شهر يناير مع ما يقارنها من مقدار المآء